

الأبنية ذات المخططات المثلثة في العمارة العراقية مرقد الشيخ محمد السكران في مدينة بغداد أنموذجاً

م.د. صلاح الدين محسن زاير(*)

م.د. غفران محمد عزيز(**)

حضر عندي ومعه جماعة من الفقراء، فلم أرَ أحداً منهم جلس معه تعظيماً له، فقلت له: سيدي أتأذن لهم في الجلوس، ثم ذكر وفاته في يوم الثلاثاء خامس شعبان سنة ٦٦٧هـ، ودفن في قريته وبُني عليه قبّة، وأقام أصحابه بعده يسلكون طريقه، وهم الآن في بركة مُجتهدين في الجري على منهاجه^(١).

ويذكر أنّ مرقدَه عند قرية الجديدة في الزاوية^(٢)، من ناحية خان بني سعد في مقاطعة المشيرية، وشرق الراشدية وإلى الشمال الغربي من الناحية بنحو عشرة كيلومترات، وإلى الشمال الشرقي من بغداد على نحو من ثلاثين كيلومتراً، ويقع المرقد على تَلٍّ أثري إسلامي يبلغ مُحيطه نحواً من خمسمائة متر وارتفاعه بين المتر والمترين، ويحيط بالتل بستان من النخيل والأشجار المثمرة، ويرتقي تاريخ البناء إلى أواسط القرن السابع للهجرة (القرن الثالث عشر الميلادي)^(٣).

المقدمة:

سيرة الشيخ محمد السكران: يذكر المؤرخ العراقي ابن الساعي (٥٩٣-٦٧٤هـ/١١٩٧-١٢٧٥م) ترجمة الشيخ محمد السكران، فيقول: هو الزاهد المشهور أبو عبد الله محمد بن سكران بن أبي السعادات بن معمر، الذي لا يزال ضريحه قائماً عند مفرق الراشدية في بداية الطريق الترابي بين طريق الخالص الجديد وناحية خان بني سعد، والمار بالمشيرية، ولد بإحدى قرى بغداد، وسكن ناحية المباركة من أعمال الخالص واستوطنها وعمرَ فيها رباطاً، وأنشأ إلى جانبه بستاناً، وسكن عنده جماعة من الفقراء المُريدين له المُعتقدين فيه، واستعملهم في الزراعة... وغني بمولد النبي (ﷺ)، وكان يُنفق في كلِّ سنة ما يزيد على خمسمائة دينار في مولده (ﷺ)، ويصنع به الأطعمة الكثيرة التي تعم من يقصده في مثل هذا الموسم من الفقراء كافة... وسائر بغداد، قال لي مرة، وقد

(*) (**) جامعة ميسان / كلية التربية.

ويذكر ابن الفوطي (٦٤٢-٧٢٣هـ/١٢٤٤م) سيرة الشيخ مُحَمَّد السَّكْرَان، فيقول: «محيي الدين أبو الفقراء مُحَمَّد بن عبد العزيز السَّكْرَان بن أبي السَّعَادَات بن المُعَمَّر الخالسي العارف الزاهد، كان شيخ زمانه ورعاً وعباداً ومعرفة وزهادة، والزاوية المنسوبة إليه هي طراز العراق التي اشتهر ذكرها في جميع الآفاق، أدركت زمانه وتبرَّكَتْ برويته وتشرَّفت قبيل الواقعة^(٤) بتقبيل يده، وكان قد استدعاه الخليفة لأجل الدعاء مع جماعة من الفقراء، فذكر الشيخ أنَّ الأمر قد فرط {قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ}. (سورة يوسف، آية: ٤١) وكان قدس الله روحه على طريقة مشكورة في خدمة الصادر والوارد والمقيم والمُسافر، ويخدم الناس على طبقاتهم من الملوك والسلاطين إلى الفقراء المُحتاجين، وعليه رسوم لفقراء بغداد، بل لأكابرها يتناولونها في كلِّ عام، ولم يزل على هذه الطريقة المعهودة المحمودة إلى أن توفي في شعبان سنة سبع وستين وثمانئة، ودُفن بزاويته بالمباركة من الخالص وعمَّرت عليه قبة عالية يزورها الناس، وقد زرته»^(٥).

تخطيط وعمارة مرقد الشيخ مُحَمَّد السَّكْرَان:

يَتَّخِذ المرقد من الشكل المُثَمَّن أساساً لتخطيطه، طول كلِّ ضلعٍ من أضلاعه الخارجية (٤٠،٥٠م)، وارتفاعه (٦م) (شكل: ١)، يليه عقود منبسطة تعلوها القبة، وهو مبني بالأجر والجص^(٦).

الظُلَّة: تتقدم المدخل ظلَّة مستطيلة الشكل أبعادها (٤٠،٤٠ × ٣،٨٠م)، أمَّا ارتفاعها فيبلغ (٦م)، ويُرَّيَّن واجهتها شريط زخرفي مستطيل الشكل، يتضمَّن الآية القرآنية: {إِنَّمَا يَعْمُرُ

مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} ^(٧) مُنْفَذَةً على بلاطاتٍ خزفية (أَقَاشَانِي)^(٨) بشكلٍ بديع جداً، إذ استعمل الفنَّان العراقي اللون الأبيض لكتابة الآية القرآنية على أرضية زرقاء، ويُحيط بها من الجانبين إطار زخرفي مكوَّن من زهرياتٍ تعلو أحدها الأخرى، ويُرَّيَّن هذه الزهريات أنواع من الورد المتنوعة ذات الألوان المختلفة، فضلاً عن الفروع النباتية الملثوية، أمَّا الجدران الداخلية للظلَّة فهي بارتفاع (مترين) مكسيَّة بنوع من البلاط المعروف بـ(السيراميك) Ceramic ذو اللون البني الفاتح، وتُفْضِي الظلَّة إلى مدخل المرقد.

المدخل: يقع في الضلع الغربي للمرقد (شكل: ١)، أبعاده (٦٠،٢ × ٣٠،٣م)، ينتهي من الأعلى بعقدٍ نصف دائري، ويُعْطِي المدخل باب خشبي ذو مصراعين، أبعاده (٢ × ٣٠،٣م)، كل مصراع زُيَّن بإطارٍ خشبي مستطيل الشكل يمتد بصورة عمودية، وقد زُوِّد المِصْرَاع الأيمن بمقبضٍ معدني لفتح الباب وغلقه، أمَّا المِصْرَاع الأيسر فقد زُوِّد بعارضةٍ خشبية تمتد على طوله تُسْتخدَم لتثبيت الباب، ويعلو أسكفة الباب باطن العقد وقد أُغْلِقَ بلوح خشبي.

ويعلو مدخل المرقد عقدٌ مُدَبَّب، زِيَّن باطنه كتابة بالخط النَّسخي مُنْفَذَةً على الأجر في غاية الدقَّة والإبداع، وهي كالآتي^(٩): بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (سورة البقرة، آية: ٢٧٤)، هذه التربة للشيخ الصالح قطب العارفين أُوْحِدَ عصره وفريد دهره مُحيي الدين مُحَمَّد بن السَّكْرَان رحمة الله عليه، ومُنشئ هذه الزاوية

وموقفها على الفقراء المُقيمين والواردين واليتامى والمساكين والغرباء وأبناء السبيل، وأنشأ هذه القبّة خادمه ووصيه الشيخ خميس، توفي الشيخ رحمة الله عليه يوم الجمعة سبع وستين وستماية، وصلى الله على مُحَمَّدٍ وآلِهِ.

ويُزيّن كوشتي العَقْد طرّة زخرافية سُداسية الشكل، يُزيّن داخلها كتابة نسخية متداخلة الحروف، وقد طُليت الكتابة التي تُزيّن باطن العَقْد المُدَبَّب الذي يعلو المدخل وكوشتي العَقْد باللون الذهبي، أمّا الأرضية فكانت باللون الأبيض، ممّا أضفى على المدخل لمسةً جمالية مميزة.

حُجرة الضريح: حُجرة مُثَمَّنة الأضلاع، طول كل ضلع من أضلاعها (٤,٥٠م) وارتفاعها (٦م)، وسُمك الجدران المُثَمَّنة تراوحت بين (٣٠،١-٤٠،٤م) وتشغل مساحةً مقدارها (٣٦م^٢)، وقد استفاد المعمار العراقي من هذا الشكل المُضَلَّع وتعامل معه بأفضل طريقة، حيث زيّن كلّ ضلعٍ من هذه الأضلاع بدخلةٍ أبعادها (٦×٢م) تنتهي من الأعلى بعقدٍ منبسط، تعلوها دخلة ثانية على هيئة مقرنصٍ غائر، وهي بارتفاع مترٍ واحد، وتُعتبر هذه الدخلات التي تُزيّن كلّ ضلعٍ من الأضلاع الثمانية مع المثلثات الركبية التي تُزيّن أعالي منطقة التقاء كلّ ضلعين من الأضلاع الثمانية القاعدة التي تقوم فوقها رقبّة القبّة، وهي أسطوانية قصيرة مبنية بالآجر والجص وبطريقة فنية تدل على مهارة في الصنعة، حيث تمكّن المعمار من التوفيق بين الأضلاع المُثَمَّنة والأشكال المُقرنصة والمثلثات الركبية ليجعل منها الأساس الذي تقوم عليه القبّة والقبّة من نوع القباب البصلية، وتمتاز بكونها ذات قبّة

مزدوجة، أي أنّها تتكون من قبتين، الخارجية ذات شكلٍ بصلي، والأخرى داخلية ذات شكلٍ مفلطح، وترتفع القبّة الداخلية فوق الأضلاع المُثَمَّنة والأشكال المُقرنصة والمثلثات الركبية بحدود (٤م)، وقد فُتحت في القبّة نافذة مستطيلة الشكل أبعادها (٣٠،٢٠×٠،٢٠م) لإدخال الضوء إلى داخل المرقد، وترتفع القبّة عن الأرض (١م)، وأخيراً يرتفع فوق القبّة ميل يبلغ ارتفاعه متر واحد، يحمل فوقه شكل هلال.

أمّا داخل حجرة الضريح فقد فُتِح في الضلع الشرقي المقابل لمدخل المرقد نافذة ترتفع عن أرضية المرقد بحدود مترٍ واحد، أبعادها (٢٠،٢٠×٢،٢٠م) تنتهي من الأعلى بعقدٍ نصف دائري، يغطيها شبّك حديدي مكوّن من طلاقتين مُزيّن بالزجاج الشفّاف. في حين فُتِح في الضلع الشمالي للمرقد فتحةً أبعادها (٢×١م) تنتهي من الأعلى بعقد نصف دائري تؤدي إلى قاعةٍ جانبية حديثة البناء تُستعمل (كمكتبة).

وقد كُسيّت الجدران الداخلية للمرقد بارتفاع (مترين) بنوعٍ من البلاط المعروف بـ(السيراميك) ذي اللون الأخضر الفاتح، في حين تمّ طلاء باقي جدران المرقد الداخلية باللونين الأخضر والبني الفاتح.

صندوق القبر: صندوق معدني من الألمنيوم Aluminium، أبعاده (٨٠،٢٠×٢،٢٠×٣م)، ذو غطاءٍ منشوري الشكل، يتوسّط حجرة الضريح، تعلوه القبّة الرئيسية للمرقد، وهو مغطى بقطعة قماشٍ خضراء وسوداء، ويوجد داخل الصندوق قبر الشيخ مُحَمَّد السُكْران والشيخ خميس.

أصول التخطيط المُثَمَّن في العمارة القديمة:

أقدم مثال للتخطيط المُثَمَّن قبل الإسلام هو كنيسة «سمعان العمودي» في قلعة سمعان، والتي بُنيت عام ٤٧٠م^(١)، وتتكون هذه الكنيسة من أربع بازيليكات Basilica^(١١) عظيمة، تتقاطع مع المُثَمَّن المركزي الذي يبلغ قطره (٢٧م)، وقد تعرض البناء إلى أضرار وسقطت قُبَّته عام ٥٢٦م، عندما تعرضت مدينة أنطاكيا Antakya إلى زلزال، وقد استطاع عالم الآثار (كرنكر) من القيام بالحفريات في المنطقة عام ١٩٣٣م، وقدم أبحاث بين عامي (١٩٣٣-١٩٣٨م) أثبتت وجود بناء مُثَمَّن تعلوه قُبَّته، بُني قبل عام ٥٠٠م، تعرض للسقوط في زلزال أنطاكيا المشهور في عام ٥٢٦م، وأنَّ ذلك البناء شبيهه إلى درجة كبيرة جداً بقُبَّته الصخرة التي بُنيت بعد قرنين من الزمن تقريباً^(١١).

كنيسة الصعود: بناها الإمبراطور قسطنطين Constantine the Great (٢٧٢-٣٣٧م) في جبل الزيتون في القدس، وهي تُحيط بالصخرة التي يُعتقد أنَّ السيد المسيح عرج منها إلى السماء، والصخرة يُحيط بها (٦) عموداً يعلوها قُبَّته خشبية، ويُحيط بها بناء مُثَمَّن مُنتظم الشكل^(١١).

كنيسة المهدي: كانت في الأصل في القرن الرابع الميلادي بناء مُثَمَّن الشكل يُحيط بمغارة المهدي في مدينة بيت لحم^(١١).

كاتدرائية بُصرى: تقع في حوران في بلاد الشام، وهي تعود إلى العهد البيزنطي Byzantine Empire، بُنيت في عام ٥١٢م، ذات مخطَّط مُقسَّم من الداخل بواسطة (٨) دعائم و (١٦) عمود، تمَّ توزيعها بحيث تُشكِّل الدعائم أركان الشكل الثماني، وبين كلِّ دعامتين يوجد

عمودان، وهو يُشابه ما هو موجود في رواق قُبَّته الصخرة الخارجي، أمَّا القُبَّته المركزية فهي مرفوعة على أربعة دعائم، بين كلِّ دعامتين (٣) أعمدة، وهو يُضاهي المخطَّط الدائري الذي يحمل قُبَّته الصخرة، مع العلم أنَّ قطر قُبَّته كاتدرائية بُصرى (٩، ٤م)^(١١)، في حين أنَّ قطر قُبَّته الصخرة (٤، ٢٠م).

وهناك نماذج أخرى من الأبنية ذات التخطيط المُثَمَّن كان قد ذكرها (صفوان خلف التل) في بحثه، نذكر منها الآتي^(١١): بناء ضريح السيدة مريم في القدس (٣٣٥م)، بناء كنيسة هبة الله (ثيوثوكاس) theothokas على جبل جزريم - نابلس (٤٨٤م)، بناء كنيسة مُثَمَّنة في بيسان Beit She'an (القرن الخامس الميلادي)، كنيسة مُثَمَّنة في أم قيس، وأخرى في شمال جرش Jerash (القرنين الخامس والسادس الميلاديين)، الكنيسة المُثَمَّنة الذهبية في أنطاكيا - سوريا (القرن الرابع الميلادي)، كنيسة القديس سرجيوس وباخوس-Serjeos Bakose في إستانبول (٥٢٥م)، كنيسة هيرابولس Herapolice في تركيا (القرن الخامس الميلادي)، كنيسة القديس سان فيتال Sanvitale في رافينا Ravenna - إيطاليا (٥٤٦م).

مما سبق يتبيَّن لنا أنَّ معظم النماذج ذات المخطَّط المُثَمَّن التي تمَّ عرضها هي من بلاد الشام وفلسطين، مما يدل على أنَّ هذا النمط من البناء هو تقليد سوري فلسطيني شرقي يعود للحِقبة التاريخية التي سبقت الإسلام، وما حصل مع مخطَّط قُبَّته الصخرة هو عودة إلى الأصول المحلية، وليس استعارة نماذج من مخطَّطات من حضاراتٍ غربية.

الأصول العمارية للأبنية ذات التخطيط المُثَمَّن في العصر الإسلامي:

١. قَبَّة الصخرة: بدأ بناء قَبَّة الصخرة المباركة سنة ٦٦ هـ/٦٨٥ م، في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥-٦٨٥ هـ/٦٨٥-٧٠٥ م)، واستمر العمل في هذا البناء مدَّة سبع سنوات حيث تمَّ الفراغ منه سنة ٧٢ هـ/٦٩١ م، وقد أشرف على بنائه المهندسان العربيان رجاء بن حبة الكندي وهو من بيسان فلسطين، ويزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان وهو من القدس^(٧١)، ولا شكَّ أنَّ تشييد هذا البناء يعود لأسباب كثيرة ربما من أهمها الرغبة في إحاطة الصخرة المقدسة ببناء جليل، وهي الصخرة التي يُروى أنَّ رسول الله (ﷺ) وضع قدمه عليها ليلة عروجه إلى السماء، ومن الأسباب أيضاً رغبة عبد الملك بن مروان في أن يكون للمسلمين عمائر دينية تُضارع في البهاء والعظمة الكنائس المسيحية الجلييلة المنتشرة في بلاد الشام وفلسطين، ويروي اليعقوبي الجغرافي العربي الشهير (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م) سبباً آخر في بناء قَبَّة الصخرة، وهو: "إنَّ عبد الملك منع أهل الشام من الحج، وذلك أنَّ عبد الله بن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة له، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكَّة، فضجَّ الناس وقالوا: تمنعنا من حجِّ بيت الله الحرام وهو فرضٌ من الله علينا، فقال: هذا ابن شهاب الزهري يُحدثكم أنَّ رسول الله قال: لا تُشد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد. وهذه الصخرة التي يُروى أنَّ رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة. فبنى على الصخرة قَبَّة وعلَّق عليها ستور الديباج وأقام لها

سدنة، وأخذ الناس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة"^(٨١).

إنَّ بناء قَبَّة الصخرة مُثَمَّن الشكل، طول كل ضلع من أضلاعهِ الثمانية (٢٠،٥٠ م)، وارتفاعها (٩،٥٠ م)، يلي الجدران الخارجية تثمينة من الأعمدة والأكتاف ورَّعت في نمطٍ خاص، وهو أنَّ يقع بين كلِّ كتفين عمودان، فيكون مجموع الأكتاف ثمانية ومجموع الأعمدة سبعة عشر، ويلي هذه التثمينة رواق ثمَّ دائرة من الأعمدة والأكتاف قوامها أربعة أكتاف واثنا عشر عموداً، ورَّعت في شكلٍ خاص قوامه كل ثلاثة أعمدة محصورة بين كتفين^(٩١) (شكل: ٢).

إنَّ هذه الدائرة من الأعمدة والأكتاف تحمل فوقها رقبة بنائية تنتهي بالقَبَّة، وهي قَبَّة ضخمة نصف كروية من الخشب تغطيها من الخارج صفائح الرصاص، ومن الداخل طبقة من الجص المُزخرف (شكل: ٣).

لقد شُيِّدت هذه القَبَّة لتعلو الصخرة المقدسة، والصخرة غير مُنتظمة الشكل، طولها (١٧ م) وعرضها (١٣ م)، وأقصى ارتفاع لها عن الأرض (٥٠ م).

إنَّ جميع العقود في قَبَّة الصخرة بما فيها عقود النوافذ والمداخل نصف دائرية، أمَّا الأعمدة الرخامية المُستخدمة في البناء فقد جُلبت من عمائر قديمة، والسبب الذي يحملنا على هذا الاعتقاد هو أنَّ التيجان التي تعلو هذه الأعمدة متنوعة الأشكال والأنواع، وجلب الأعمدة الرخامية من مبانٍ قديمة واستعمالها سُنَّة عرفتها الحضارات القديمة (الرومانية واليونانية).

لقد زينت جدران قبّة الصخرة من الداخل والخارج بالزخارف النباتية والهندسية الجميلة المعمولة من الفسيفساء Mosaic، فضلاً عن شريط كتابي بالخط الكوفي البسيط غير المنقّط يُحيط بالجزء الداخلي من التّمينة الداخلية، وقوام هذه الكتابة آيات قرآنية وعبارة تُشير إلى تاريخ البناء واسم بانيتها^(١٠).

٢. القبّة الصليبية: اختلفت الآراء حول تسميتها وتسمية بانيتها والغرض من بنائها، فهناك من يذكر بأنّ الاسم مأخوذ من قبيلة صليب^(١١)، وقيل إنّها كانت موضعاً لصلب الخارجين عن القانون والمعارضين للدولة^(١٢)، وهناك من يعتقد بأنّ الصليبية ما هي إلاّ تحريف لكلمة (السليبية)، حيث أنّها كانت أصبحت مكاناً لقطع الطّرق بغية النهب والسلب^(١٣)، أو أنّها تحريف لكلمة (السليبية) – والتي تعني الأمّ التي فقدت وحيدها^(١٤)، وأنّ أمّ الخليفة المنتصر هي التي بنتها لابنها الذي مات مسموماً سنة (٢٤٨هـ/٨٦٢م) والتي أكثرت من التردد على قبره^(١٥)، ودُفن في هذه القبّة أيضاً المُعتر بالله (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)^(١٦)، والمُهدي بالله (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م)^(١٧).

ويعتقد بعض الباحثين أنّ القبّة بُنيت لتكون ضريحاً، وتُعد من الآثار العباسية المهمة الشاخصة في سامراء على الضفة الغربية لنهر دجلة إلى الجنوب من قصر المعشوق، وتتكون أصلاً من مُتمّنين من البناء يفصل بينهما ممر عرضه (٢،٥م)، وقد فُتح في المُتمّن الخارجي منهما ثماني فتحات، فتحة في كلّ ضلع من أضلاعه عرضها (١،٥م)، أمّا المُتمّن الداخلي فقد فُتح في جدرانه أربعة مداخل في الاتجاهات الأربعة الأصلية، وتُحيط بغرفة مرّبة الشكل

طول ضلعها حوالي (٥،٦م)، ويزيد ارتفاعها على الخمسة أمتار، تمّ تحويل القسم العلوي منها إلى مُتمّن بواسطة حنايا ركنية مفردة لتهيئة قاعدة تقوم فوقها قبّة لا نعرف شكلها الحقيقي، ولكن يُرجّح أنّها كانت نصف كروية ذات ديب خفيف على نفس نمط عقود القبّة، أمّا الرواق الذي يفصل بين المُتمّنين فقد سقّفته دائرة الأثار والتراث بسقفٍ مستوٍ، يُرجّح أنّه كان قبواً نصف أسطواني ذا ديبٍ خفيفٍ أيضاً^(١٨).

وقد قام عالم الآثار الألماني إرنست هرتسفلد Ernst Emil Herzfeld (١٨٧٩-١٩٤٨م) بالتنقيب في هذه القبّة في كانون الأول من سنة ١٩١١م، فوجد ثلاث جثث نسبها إلى ثلاثة خلفاء من بني العباس، هم: المنتصر والمُعتر والمُهدي^(١٩).

يُعد هذا البناء أقدم ضريح إسلامي تصل بقاياه إلينا حتّى الوقت الحاضر، ورغم بساطته إلاّ أنّه فريد في تخطيطه، ويُعتبر ابتكاراً في بناء الأضرحة وهو مشابه للتصميم الهندسي الذي أُقيمت على أساسه قبّة الصخرة، إلاّ أنّ القسم المركزي من الضريح مرّبة الشكل بدلاً من الدائري الموجود في قبّة الصخرة (شكل: ٤)، وكان لتخطيط هذا الضريح أثرٌ كبير في الأضرحة التي بُنيت بعده في العراق، وفي أماكن أخرى من العالم الإسلامي^(٢٠).

٣. ضريح السيدة زمرد خاتون (الست زبيدة): يقع هذا الضريح في مقبرة الشيخ معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ/٨١٥م)، ويُنسب خطأً إلى الست زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد المتوفاة سنة (٢١٦هـ/٨٣١م)، إذ من الثابت تاريخياً أنّ الست زبيدة دُفنت في مقابر قریش في مدينة الكاظمية^(٢١).

كما أنّ القبة المخروطة المقرنصة التي تُغطّي الضريح لم يظهر شكلها قبل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ويُرجّح الباحثون نسبة الضريح إلى السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المُستضيء بأمر الله وأم الخليفة الناصر لدين الله المتوفّاة سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٢م)، إذ تُؤكّد الأدلة التاريخية أنّها شيّدت لها ضريحاً في هذا الموقع قبل وفاتها بما يزيد على عشر سنوات^(٣٣).

استُعمل الأجر والجص فقط في بناء هذا الضريح الذي يتكون من غرفة مُثمّنة الشكل أعلى ارتفاع في جدرانها من الخارج (٩،٧٥م)، أمّا من الداخل فارتفاعها (٨،٣٠م)، وقد غطّت جدرانها الداخلية بطبقة بسيطة من الجص خالية من الزخرفة. ويوجد في وسط جدار القبلة محراب بسيط مجوّف ذو عقدٍ مُدبّب مغطّى بطبقة من الجص وهو خالٍ من الزخرفة (شكل: ٥).

أمّا من الخارج فإنّ جدران الضريح مكسوّة بالأجر فقط دون الإكساء بالجص، ومُزَيّنة بتجويّفات ذات عقودٍ مُدبّبة، ومملوءة بحشواتٍ آجيرية متعددة الأشكال، حفرت بزخارف هندسية ونباتية دقيقة، تألّفت من جميعها وحداتٍ زخرفية غاية في الدقّة والجمال، وتقوم فوق حجرة الضريح المُثمّنة التخطيط رتبة مُثمّنة الشكل ترتفع فوق السطح حوالي (٣٠سم)، تستقر عليها قبة مخروطة مقرنصة مكسوّة بالجص من الداخل ومن الخارج، وتتألّف من عشر طبقاتٍ من المقرنصات المُحدّبة إلى الخارج، وقد فُتّح في الطبقة الأولى منها ثلاث نوافذ للإضاءة والتهوية، كما أنّ في كلّ مقرنصٍ منها ابتداءً من الصفّ الثاني فتحة

صغيرة أغلقها دائرة الأثار والتراث بأطباقٍ زجاجية لمنع الطيور من التعشيش فيها، ولحفظها من تسرب مياه الأمطار إلى الداخل، وكان لهذه الفتحات أثرٌ في الحفاظ على القبة من خلال تخفيف قوة اصطدام الريح بيدن القبة، وتنتهي طبقات المقرنصات في الأعلى بشكلٍ نجمي ذي ثمانية رؤوس، وتغطيها من الخارج قبة مُضلّعة صغيرة، ويبلغ ارتفاع القبة فوق الجدران حوالي (١٣م)، أمّا ارتفاعها الكليّ عن الأرض فحوالي (٢٢م)، ويقع مدخل الضريح في الجدار الشمالي من الغرفة، وعلى يسار الداخل هناك سلّم مكون من (٢٩) مرصاة بُني في سمك جدار الغرفة، عرضه (٦٥-٧٠سم) يؤدي إلى سطحها (شكل: ٥)، وأجمل ما في داخل حجرة الضريح مقرنصات القبة ومقرنصات منطقة الانتقال، التي تركت أثراً كبيراً وهاماً في العمارة الإسلامية عموماً، للانتقال من شكلٍ إلى آخر أكثر ملاءمةً لبناء قبةٍ فوقه^(٣٣).

٤. مشهد الشمس: يقع مشهد الشمس في محافظة بابل، على يسار الطريق المؤدي إلى محافظة كربلاء، وقد عُرف بهذه التسمية استناداً إلى روايةٍ تذكر أنّ الشمس رُدّت للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بعد غروبها في هذه البقعة^(٤٣).

وقد تعددت الآراء حول تاريخ بناء المشهد القائم اليوم، فهناك من يذكر أنّه يعود إلى الربع الأول من القرن السابع الهجري، ومنهم من يُشير إلى عائدته إلى بداية القرن السابع الهجري، وهناك من يعقد مقارنةً بينه وبين ضريح زمرد خاتون من حيث التخطيط، إذ إنّ كلاهما اعتمد على تخطيطٍ مُثمّن، كذلك

الشبه في مقرنصات منطقة الانتقال، فضلاً عن صفوف حنايا القبة والتي تتألف من (٢٤) حنية، ممّا يدل على حصول مرحلة تطور عن قبة زمرد خاتون التي تتألف صفوفها السبعة الأولى من (١٦) حنية، ويُرجّح تاريخ بنائها إلى العقد الأخير من القرن السادس الهجري^(٥٣).

ترتفع قبة مشهد الشمس على بدنٍ مُثَمَّن (شكل: ٦). أبعاد أضلاعه غير متساوية، وهي كالآتي: (٣٠، ٤٨/٤، ٤٨/٣، ١٢/٣، ٦٨/٤، ٢٨/٣، ٤، ١٢، ٤، ٢٤، ٨٨/٤، ٣، م)، ولا يظهر من أضلاعه الثمانية سوى ثلاثة، فضلاً عن البرجين اللذين يكون نصف محيطهما ما بين (٢-١٥، ٢م)، وقد أُضيفت إلى قبة المشهد مبانٍ أخرى حديثة حجت جدران المبنى، غير أنّ أضلاعه من الأعلى تظهر جميعها، وهناك تفاوت بين أبعاد أضلاع البناء من الأسفل والأعلى، ويُعزى السبب إلى أنّ البناء يميل إلى الداخل كلّما ازداد بالارتفاع، ويبلغ ارتفاع المبنى حوالي (٦، ٥٠م).

ويعلو البدن قاعدة مُثَمَّنة ارتفاعها (٢م)، وطول كل ضلع من أضلاعها حوالي (٣، ١٢م)، وقد فُتح في منتصف كلّ ضلع منها نافذة لإدخال الضوء والهواء، وتقوم فوق القاعدة المُثَمَّنة القبة وهي مؤلفة من (١٣) صف، وكل صف يتكون من (٢٤) حنية، ابتداءً من الصف الأول من الأسفل وحتى الصف الثامن، ومن الصف التاسع إلى الصف الأخير يضم كل صف (١٢) حنية، يليه قبة مضلعة، وحنايا القبة تكون مُحدبةً من الخارج ومُقعرة من الداخل، وترتفع القبة فوق البدن حوالي (١٢م)، وبذلك يكون الارتفاع الكلي للبناء (٢٠، ٥٠م).

أمّا مدخل مشهد الشمس فيقع في منتصف

الضلع الغربي، أبعاده (٢×٩٥، ٠م)، وقد أُجريت عليه عدّة عمليات ترميم أفقدته معالمه الأصلية، ويؤدي المدخل إلى حجرة المشهد وهي مُدعّمة من الداخل بثمانية دعائم، تبعد كل دعامة عن الثانية حوالي (١، ٥٥-١، ٦٧م)، ويُزيّن الضلع الجنوبي من الحجرة محراب مجوّف أبعاده (١، ٩٨×١، ٠٤م) وعمقه (٠، ٥٤م)، أمّا سُمك جدران الحجرة فيبلغ (٠، ٦٢م) وعند إضافة سُمك الدعائم يصبح ما بين (١، ٧٧-١، ٩١م)^(٦٣).

الخاتمة:

- مهما حاول المؤرخون والآثاريون الغربيون التقليل من أهمية بناء قبة الصخرة، إذ يدّعون أنّه كان تقليداً لبناء من هنا أو هناك، تبقى الحقيقة واضحة بأنّ المسلمين الأوائل درسوا واستفادوا من الأمثلة المعمارية السابقة، وقد أبدعوا في عمارتهم الدينية ممثلةً في مسجد قبة الصخرة، وكذلك الحال في عمارتهم المدنية التي خرجت في أفضل صورة.

- عرفنا من خلال البحث بأنّ المخططات المُثَمَّنة كانت لها جذور شرقية في بلاد الشام وفلسطين، كما هو الحال في كنيسة القيامة، وكنيسة القديس سمعان في حلب، وغيرها.

- إنّ مسألة الأخذ والاعتباس بين الحضارات الحيّة قائمٌ منذ القَدَم، وإذا كانت بعض العناصر المعمارية في العمارة العربية الإسلامية لها جذور في الطرازين البيزنطي الغربي والساساني الشرقي، فإنّ هذين الطرازين الأخيرين قد أخذوا وابتسوا بدورهما تلك العناصر من الحضارة السابقة كالإغريقية والرومانية.

- إنّ الطرازين البيزنطي والساساني قد

الأعلى في الأبنية ذات التخطيط المُثَمَّن، في إشارةٍ إلى انفتاحه على السماء.

- الشكل المُثَمَّن يعطي للزائر والمشاهد شعور بأهمية المكان، لنسق البناء وارتفاعه وفخامته.

- اعتماد أسلوب التناسب في أبعاد المبنى ذي المُخَطَّط المُثَمَّن يدل على مستوى رفيع لدى البناء العراقي في مهاراته البنائية.

- الشكل المُثَمَّن يعطي مساحاتٍ واسعة من جدران المبنى الداخلية والخارجية لتصبح لوحاتٍ فنية للرسوم النباتية والهندسية والكتابية.

تطورا في البلاد العربية، وعلى أيدي شعوب تلك المناطق كالعراق والشام وفلسطين وما حولها.

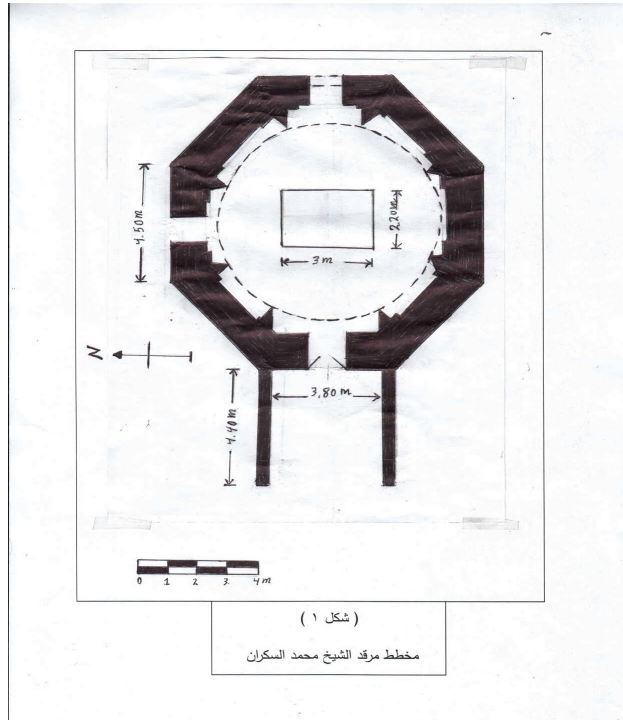
- إنَّ التخطيط المُثَمَّن لِقَبَّة الصخرة يُعتبر أنموذجاً وحيداً وفريداً لم يتكرر في العمارة الأموية، وهو الأساس لكلِّ مُخَطَّطات الأبنية المُثَمَّنة التي ظهرت لاحقاً في العمارة الإسلامية في البلاد العربية وغيرها.

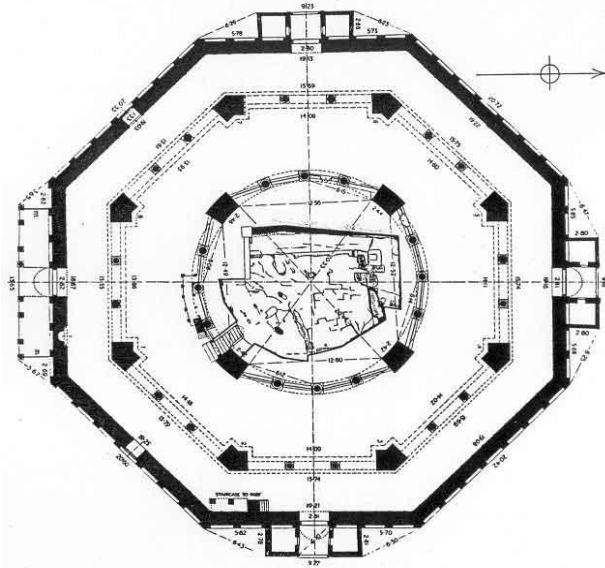
- وضوح الأسس الجمالية للعمل الهندسي في الأبنية ذات التخطيط المُثَمَّن.

- تمتاز الأبنية ذات التخطيط المُثَمَّن بخاصية التكرار للعناصر المعمارية والزخرفية، وبشكلٍ متناظر يوحي بوحدة العمل الهندسي.

- تأكيد وإبراز الفضاء وانسيابيته نحو

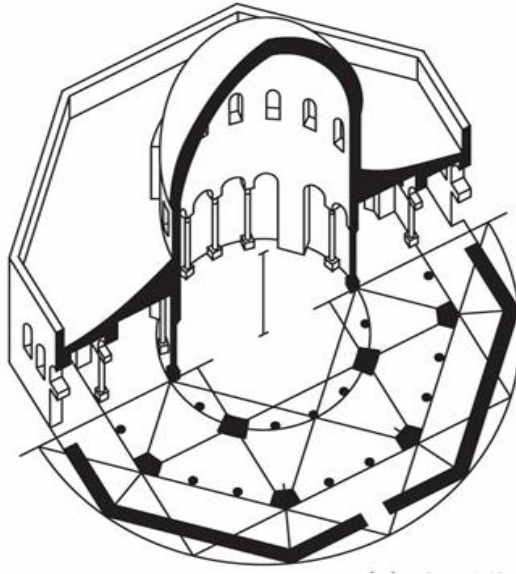
الأشكال:





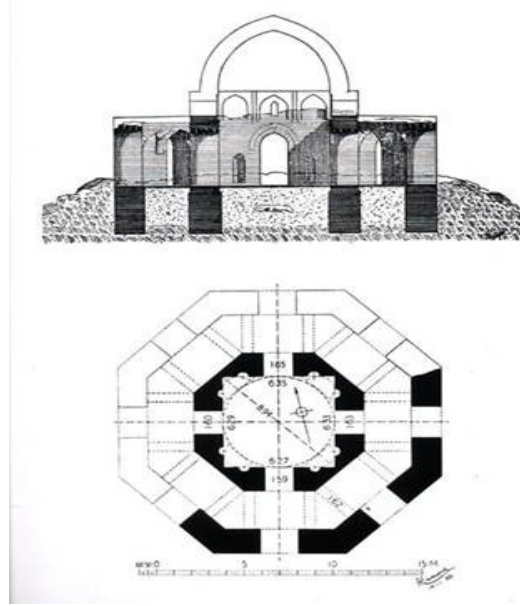
(شكل: ٢)

المصدر: كريزويل، مخطط قبة الصخرة، ١٩٦٩م



(شكل: ٣)

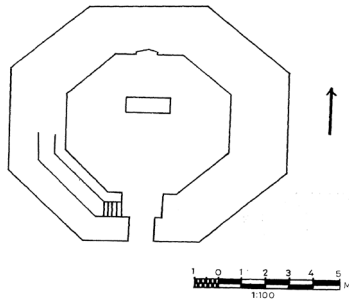
المصدر: كريزويل، منظور عمودي لقبة الصخرة، ١٩٦٩م



(شكل: ٤)

منظور عمودي ومخطّط أرضي للقبة الصليبية

المصدر: المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق، ص ٢٥٥



(شكل: ٥)

مُخطّط ضريح السيدة زمرّد خاتون (الست زبيدة)

المصدر: المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق، ص ١٦١

لأنها مُستحدثة وليست من أصل البناء القديم للمرقد، وعليه فهي ليست أبنية أثرية أو تراثية مثل قاعة جانبية تقع على يمين المرقد والظنّين الواقعتين على جانبي الظلة الرئيسية المؤدية إلى مدخل المرقد، فضلاً عن القاعة الجانبية (المكتبة) المفتوحة على المرقد.

(٧) سورة التوبة، آية: (١٨).

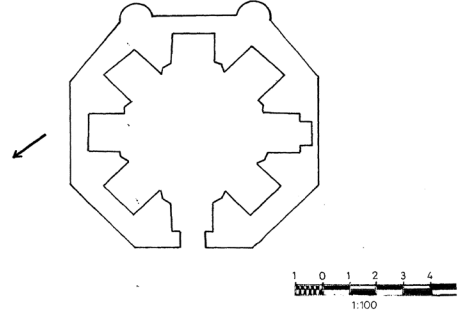
(٨) الكاشاني أو (القاشاني): بلاط معمول من الفخار، وجهه ملوّن ولمّاع، ويُسمّى الآن في بغداد (الكربلاني). مجلة المجمع العلمي العراقي، م ٢٩، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٢٥٤. والقاشاني لفظة صارت تتداول بعد القرن السادس الهجري، نسبةً إلى مدينة (قاشان) في إيران. علي، فاروق محمد، القراميد العمارية في العراق إلى نهاية القرن السادس عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الآثار، ١٩٨٩م، ص ٤.

(٩) ترجع هذه الكتابة إلى سنة وفاة الشيخ مُحَمَّد السَّكران (٦٦٧هـ/١٢٦٩م) أي بداية الفترة الإيلخانية، وتُعتبر نموذج للكتابة بالخط النسخي للفترة ما بين بناء المدرسة المُستنصرية (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) وحتى بناء المدرسة المرجانية (٧٥٦هـ/١٣٥٥م). النقشبدي، مرجع سابق، ص ١٩٨.

(١٠) قلعة سمعان: تبعد (٢٥) ميلاً عن حلب. التل، صفوان خلف، «أصول المخطّط الثماني في بناء قبة الصخرة»، مجلة أبحاث اليرموك، منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٩م، م ٥، ج ٣، ص ١٢٨.

(١١) البازليك: هي من الأبنية التي عرفتها العمارة الرومانية منذ مرحلة ما قبل الميلاد، مهندسها الأول هو أبولودوروس الدمشقي Apollodorus of Damascus (٢م)، وهي عبارة عن أروقة تتخلّلها صفوف من الأعمدة، وعلى نسقها بُنيت الكنائس المسيحية الأولى. عبد الجواد، توفيق، تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى، ط ٣، (القاهرة، ١٩٨٣م)، ج ١، ص ٣٦٣.

(١٢) كرزويل Professor Sir Keppel Archibald Cameron Creswell (١٨٧٩-١٩٧٤م)، العمارة الإسلامية الأولى، ترجمة: عبد



(شكل: ٦)

مخطّط مشهد الشمس

الهوامش:

- (١) معروف، بشّار عواد، «أخبار الزهاد.. العثور على أثر مفقود لمؤرخ العراق ابن الساعي»، مجلة المورد، بغداد، ١٣٥٣هـ، ص ٣٠١-٣٠٢.
- (٢) الزاوية ببغداد: قرية من قرى الخالص، كان فيها زاوية للشيخ مُحَمَّد بن سكران، يُطعم فيها من يجتاز به. صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد الجاوي، (بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢م)، م ٢، ص ٦٥٦.
- (٣) يرجع تاريخ بناء مرقد الشيخ مُحَمَّد بن سكران إلى أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وليس كما ذكر السيد ناصر النقشبدي إلى أواسط القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. النقشبدي، ناصر، «مرقد الشيخ مُحَمَّد بن سكران (رضي الله عنه)»، مجلة سومر، بغداد، ١٩٦٢م، ص ١٩٧.
- (٤) الوقعة: يقصد بها ابن الفوطي احتلال بغداد من قبل المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م).
- (٥) ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن احمد (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، مجمع الآداب في معجم الألقاب، (قم، ١٤١٦هـ)، ج ٥، ص ٩٣-٩٤.
- (٦) هناك إضافات بنائية جديدة لم نتطرق إليها بالشرح

- (٢٥) الطَّبري، مُحَمَّد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م)، **تاريخ الرسل والملوك**، ط٢، (بيروت، دار التراث، ١٣٨٧هـ)، ج ٩، ص ٢٥٤.
- (٢٦) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، **مروج الذهب ومعادن الجواهر**، (بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ)، ج ٤، ص ٨١.
- (٢٧) الطبري، مصدر سابق، ج ٩، ص ٤٦٢.
- (٢٨) حميد، عيسى سلمان، **العمارات الدينية (القبة الصليبية).. حضارة العراق**، (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٥م)، ج ٩، ص ٩٧-١٠١.
- (29) Creswell, Sir Keppel Archibald Cameron, *A short Account of Early Muslim Architecture*, London: 1958, vol.1, p.288.
- (٣٠) محمد، غازي رجب، **العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق**، (بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٨٩م)، ص ٢٠٣.
- (٣١) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، **الكامل في التاريخ**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ج ٨، ص ٥٩.
- (٣٢) محمد، غازي رجب، مرجع سابق، ص ٢٣٨.
- (٣٣) محمد، غازي رجب، المرجع نفسه، ص ٢٣٨-٢٤١؛ العاني، مرجع سابق، ص ٥٥-٥٨.
- (٣٤) حرز الدين، محمد، **مراقد المعارف**، (منشورات سعيد بن جبير، ١٩٩٢م)، ج ١، ص ١٤٦. ويذكر بأن هذه هي المرة الثانية التي رُذت فيها الشمس للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وقد رُذت الشمس للإمام للمرة الأولى في حياة رسول الله (ﷺ). للمزيد، يُنظر: ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **البداية والنهاية**، (بيروت، مكتبة العارف، ١٩٩٠م)، ج ١، ص ٣٢٣ - ج ٦، ص ٧٧-٧٨.
- (٣٥) العاني، مرجع سابق، ص ٥٩-٦٠.
- (٣٦) العاني، مرجع سابق، ص ٦٠-٦١.
- الهادي عليه، (دمشق، دار قتيبة، د.ت.)، ص ٥٩.
- (١٣) التل، مرجع سابق، ص ١٢٩؛ كريزويل، مرجع سابق، ص ٤٠.
- (١٤) التل، المرجع نفسه، ص ١٣٠.
- (١٥) التل، المرجع نفسه، ص ١٣١.
- (١٦) التل، المرجع نفسه، ص ١٣٧.
- (١٧) الحنبلي، أبو اليمان مجير الدين عبد الرحمن بن مُحَمَّد العليمي المقدسي (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م)، **الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل**، (عمّان، ١٩٧٣م)، ج ١، ص ٢٤٠-٢٤٢. تمَّ بناء قبة الصخرة في سنِّ سنواتٍ وليس سبعة كما ذكر المصدر، حيث بدأ البناء سنة (٦٦هـ) وانتهى سنة (٧٢هـ).
- (١٨) القاضي، مجير الدين الحنبلي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٤٠-٢٤١؛ حسن، زكي محمد، **فنون الإسلام**، (بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ٣٦-٣٨.
- (١٩) عيسى، خالد مطلق بكر، **القيم الجمالية وهندسة العمارة في مسجد قبة الصخرة المشرفة وسبل الاستفادة منها في العمارة المعاصرة.. دراسة نقدية تحليلية**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، هندسة معمارية، غزة، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ٥٩-٦٠.
- (٢٠) حسن، زكي محمد، مرجع سابق، ص ٣٩-٤٠.
- (٢١) العاني، علاء الدين احمد، **المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق**، (بغداد، المؤسسة العامة للآثار والتراث، ١٩٨٢م)، ص ٨١.
- (٢٢) سوسه، أحمد، **ري سامراء**، (بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٨م)، ج ١، ص ٩٣؛ فرنسيس، بشير يوسف، **موسوعة المدن والمواقع في العراق**، (لندن، إصدارات آي - كتب، ٢٠١٧م)، ج ٢، ص ٧٩٢-٧٩٣.
- (٢٣) العاني، مرجع سابق، ص ٨١.
- (٢٤) الأزهرى، أبو منصور مُحَمَّد بن أحمد الشافعي (ت ٣٧٠هـ/٩٨١م)، **تهذيب اللغة**، (القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر، د.ت.)، ج ١٢، ص ٤٣٤.

The buildings with octagonal designs in the Iraqi architecture .. The shrine of Sheikh Mohammed Al-Sakran in Baghdad as model

Dr. Lect. Salah Muhsen Ziyar

Dr. Lect. Goffran Muhammed Aziz

Abstract:

The Sufism in the fifth century AH in Baghdad witnessed the beginning of a development that lasted until after the sixth century, and this was in the flourishing of the movement of establishing the link and the mystical angles. The sheikhs of the link and the corners had some kind of connection with the rulers, princes and dignitaries in the Baghdadi society. They were allocated funds and endows to help them manage. There were also some of the sheikhs who established a bond or a corner to accommodate their pupils, the poor and the passers-by. The Baghdadi community paid them. For the sheikhs, and for that connection and the right corners of the funds of alms, zakat and endowments, such as Sheikh Mohammed al-Sukran, who will address the explanation of his life and then we will talk about the details of architectural and decorative shrine. This study is based on the descriptive method of geometric approach, with an emphasis on the buildings of the octagonal plan in ancient architecture, describing a number of examples of the octagonal plan in Islamic architecture, and drawing on the importance of these buildings and highlighting their advantages in order to benefit them in contemporary local architecture in Iraq.